

الباب الثاني

الحقوق العامة والحقوق المالية للمرأة

المرأة المسلمة - الجزء الأول

obeikandi.com

تمهيد :

تكلم الناس كثيراً ، قديماً وحديثاً ، حول حقوق المرأة في الإسلام ، فمنهم من يزعم ان الإسلام اهتمم حقها ، وانتقص مكانتها ، وجعلها ذات حظ أدنى ، وحياة ضيقة محدودة ، ثم سلط عليها الرجل يتزوجها حين يريد ، ويطلقها حين يريد ، ويفردها إن شاء ، ويضم إليها إن شاء .

ومنهم من تأخذ الغيرة على الإسلام وما يعرف فيه من تعاليم تسمو بالمرأة إلى أقصى ما تستعد له من درجات الكمال ، فيكتب المقالات والفصول المستفيضة ، وقد لا تعدو على كثرتها وطولها ناحيتين أو ثلاثاً من هذه النواحي الكثيرة التي عرض الإسلام فيها للمرأة ، ووضع لها في كل ناحية منها تشريعاً أو إرشاداً لا تطمع المرأة المعتدلة ذات الثقافة العالية أن يكون لها من الحظوة والعناية مثل ما نجد في تلك التعاليم الإسلامية من حظوة وعناية .

وعندما نقرأ كتاب الله الحكيم - القرآن الكريم - ونتتبع أبرز مواقفه في جانب المرأة نجده وحده خير ما يُصور للناس عناية الإسلام بالمرأة وحظوتها عنده ، وليس بعد كلام الله كلام ، ولا بعد تشريعه تشريع ، فهو الحَكَمُ الأعلى ، ومصدر التشريع الذي يحكُم على غيره ولا يحكم الغير عليه ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : [فَضَّلَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ] .

لقد عرض القرآن الكريم لموضوعات المرأة في كثير من السور ، منها : سورة البقرة ، وسورة النساء الكبرى ، وسورة المائدة ، وسورة النور ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة ، وسورة الممتحنة ، وسورة التحريم ، وسورة النساء الصغرى المشهورة بسورة الطلاق .

وبعد أن عرضنا في الباب الأول لحالة المرأة في عهد ما قبل الإسلام وما وصلت إليه من ذلة ومهانة ، نعرض في هذا الباب لمحات عما جاء به كتاب الله العظيم ، وسنة رسوله الكريم ، من حقوق عامة للمرأة في مختلف المجالات .

obeikandi.com

الفصل الأول

الخلق - التكليف - الاعتقاد

أولاً : خَلَقَ المرأةَ والرجلَ من أصل واحد :

(أ) خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة :

تحدث القرآن الكريم عن الأصل الذي تكاثر منه الإنسان ، وجعل المرأة شريكة الرجل في تكوين ذلك الأصل ، وجعله نعمة توجب على الإنسان تقوى الله ومراقبته - عز وجل - حيث يقول جل شأنه :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾^(١)

فالمرأة والرجل قائمان على أساس الوحدة في الأصل ، خلقهما الله من نفس واحدة ، وأعدهما الله وهما ليكونا خلية ونواة للمجتمع ، ويقول عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾^(٢)

وقد روى ابن عباس وابن مسعود رضی الله عنهم حديثاً جاء فيه :

« أنزل الله آدم في دار ضيافته ، وهي الجنة ، وحيداً فريداً ، لا أنيس له ، فكان يمشى فيها مستوحشاً ، ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومةً ، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدةٌ خلقها الله من ضلعه فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) سورة الأعراف - من الآية ١٨٩ .

خُلِقَتْ؟ قالت: لَتَسْكُنَ إِلَيَّ. فقالت له الملائكة يَنْظُرُونَ ما بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ: ما اسْمُهَا يا آدَمُ؟ قال حَوَاءٌ. قالوا: وَلِمَ كَانَتْ حَوَاءَ؟ قال: لأنها خُلِقَتْ مِنْ شَىْءٍ حَيٍّ.

ولقد بين الله سبحانه حكمة خَلْقِ المرأة وحكمة الزواج، فركز الهدف في سَكْنِ النفس وطمأنيتها، وفي المودة والرحمة بين الزوجين، فقال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١)

وأما حديث الرسول ﷺ، الذي يُوصى فيه بالترفق في معاملة النساء لأنهن خُلِقْنَ من ضلع أعوج، والذي رواه البخارى في صحيحه عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، فهو: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَاسْتَوْصَا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضَلْعِ أَعْوَجٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضَّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِذَا ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَرْتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا]. فهذا تعبير مجازى، مثل قوله ﷺ في الحديث الشريف: [رَفَقًا بِالْقَوَارِيرِ]. فلا يمكن أن يُفهم على أن النساء مخلوقات من زجاج، ولا يمكن أن يُفهم أيضاً أن المرأة خُلِقَتْ من ضلع أعوج، فالله سبحانه وتعالى خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة، حيث يقول عز وجل:

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾^(٢)

فالرجل والمرأة خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة جانبية من ضلع آدم، وإنما هي مثل الرجل تماماً، تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسئولية العمل أصالة، لا بالتبعية للرجل، وذلك بمقتضى كمال إنسانيتها واستقلال شخصيتها استقلالاً كاملاً كالرجل.

(١) سورة الروم - الآية ٢١.

(٢) سورة الزمر - من الآية السادسة.

(ب) خلق الإنسان من ذكر وأنثى :

إن ما يقوله علماء الاجتماع من أن المرأة نصف المجتمع ، ولا بد أن تتساوى في الحقوق مع الرجل ، ولا بد أن تتحرر وتنطلق . إلى آخر هذا الكلام المعاد والشعارات المكررة - إنها هو في الحقيقة حق يُراد به باطل . إذا كان ما يقصدونه هو ترك الحبل على الغارب للمرأة تتبرج وتثير الفتنة بين الرجال ، وتزاحم الرجال في مجالات لا تحتاج إليها ، فضلاً عن إهمال المجالات الأساسية التي خلقت من أجلها .

إن هؤلاء لا يفهمون ما أوضحه القرآن الكريم من حقوق للمرأة في كافة المجالات . فإذا نظرنا إلى القرآن الكريم فإننا نجد أن الله تبارك وتعالى يتحدث عن الزوجية في الكون كله :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(١)

في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، وفي الدرة ، وفي كل ما خلق الله ، نجد أن هناك انجذاباً متبادلاً ، فإن الزوجية قائمة في الكون كله ، وإذا كان علماء الاجتماع يتحدثون عن المرأة (أو انثى في المجتمع) فإن الإسلام ينظر إلى الكون كله على أساس أنه قائم على الذكر والأنثى ، حيث يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٢)

ونلاحظ أنه تعالى دائماً يقرون الذكر بالأنثى في كلامه ، كما في قوله عز وجل :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴾^(٣)

(١) سورة الذاريات - الآية ٤٩

(٢) سورة الحجرات - الآية ١٣ .

(٣) سورة النجم - الآيات من ٤٢ - ٤٥ .

وقوله جل شأنه :

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَيِّ يَمِينٍ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى *

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(١)

وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾^(٢)

لذلك فإن القرآن الكريم ينظر إلى المرأة نظرة أشمل وأعمق على أساس أن كل شيء قائم على الزوجية ، بما في ذلك الإنسان ؛ لذلك فإن تقدير الإسلام للمرأة نابع من النظرة الموحدة للكون فالكون كله وحدة متكاملة خلقها إله واحد ، ورب واحد ، وهى وحدة كاملة فى الأصل والمنشأ والمصير ، والمساواة الكاملة فى الكيان البشرى ، والتي تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرة بهذا الكيان ، فحرمه الدم والعرض والمال ، والكرامة التي لا يجوز أن تُلمَز مواجهة أو تُغتَاب ، ولا يجوز أن يتجسس عليها أو تقتحم الدور ، كلها حقوق مشتركة لا تميز فيها بين رجل وامرأة ، والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول :

[كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَمَالُهُ]^(٣) .

فلمرأة حقوق كاملة متساوية مع الرجل ، وعليها واجبات كاملة ، إلا أن مالها من حقوق وما عليها من واجبات ترتبط بالطبيعة الخاصة التي خصها الله بها ، كما أن حقوق الرجل وواجباته ترتبط بالطبيعة الخاصة التي خصه الله بها ، وإن كل حق للمرأة على الرجل يقابله واجب عليها إزاءه ، كما أن كل حق للرجل على المرأة يقابله واجب عليه إزاءها . وهناك قاعدة عامة فى الشريعة الإسلامية ، هى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات ، اللهم إلا ما استثنى بنص صريح .

(١) سورة القيامة - الآيات من ٣٦ - ٤٠ .

(٢) سورة الليل - الآيات من ١ - ٣ .

(٣) رواه الشيخان

(ج) زوج وأزواج في القرآن الكريم :

وكلمة زوجة لا تأتي في القرآن الكريم إطلاقاً ، وإنما تأتي كلمة زوج لا زوجة ، كما يأتي الجمع بصيغة أزواج بدلاً من زوجات ، وهذا يعنى تماثل شطرى النفس الواحدة ، فليس كل شطر سوى زوج للآخر ، حيث يقول الله عز وجل :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١)

ويقول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (٢)

ويقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ (٣)

ثانياً : مساواة المرأة بالرجل في التكليف والحساب :

(أ) مساواة المرأة بالرجل في التكليف :

كما أن مساواة المرأة بالرجل جاءت أيضاً في التكليف : من الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، وسائر العبادات ، من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج . وسائر المعاملات المختلفة .

ووضع الله عز وجل معيار الأفضلية والخيرية والتميز ، وهو التقوى ، لقوله تعالى :

(١) سورة النساء - من الآية الأولى .

(٢) سورة النحل - من الآية ٧٢ .

(٣) سورة الروم - الآية ٢١ .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَظَمُكُمْ ﴾^(١)

(ب) مسؤلية المرأة مسؤلية خاصة مستقلة عن الرجل :

والإسلام يعتبر النساء مسؤلات عن أنفسهن مسؤلية خاصة مستقلة عن الرجل ، وهناك آيات في القرآن الكريم تقرر للمرأة ذلك المبدأ العظيم ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ ط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادٍ نَاصِلِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾^(٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴾^(٣)

فالمرأة في القرآن الكريم - وأمام الله تعالى - لا يؤثر عليها وهي صاحبة فساد الرجل وطغيانه ، ولا ينفعها وهي طالحة صلاح الرجل وتقواه ، ولو كان نبياً ، فالمرأة ذات مسؤلية مستقلة فيما يتعلق بشؤونها أمام الله عز وجل .

(١) سورة الحجرات - من الآية ١٣

(٢) سورة التحريم - الآية العاشرة

(٣) سورة التحريم - الأيتان ١١ ، ١٢

إن المرأة إنسانة كاملة النفس والروح ، وهى مهدية النَّجْدَيْنِ : إمَّا شاكِرة وإمَّا كفورة ، والله سبحانه وتعالى لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ، وهى حرة مختارة ، مريدة ، تتحمل مسئولية أفعالها وأفعالها من خير أو شر . قال تعالى :

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِيْنًا ﴾^(١)

وإذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة مستقلة عن الرجل ، وعن أفعالها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، فهذا يعنى أيضاً أن تكون المرأة مساوية للرجل فى المسئولية عن الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة بمقتضى كمال إنسانيتها واستقلال شخصيتها استقلالاً كاملاً كالرجل ، وكل منهما مسئول عما يعمل من خير أو شر ، وكل منهما مُحَاسَب على عمله ثواباً وعقاباً .

(ج) مساواة المرأة بالرجل فى المسئولية عن الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة :

أمَّا عن الأعمال الصالحة فنجد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تحاطب الرجل والمرأة على السواء ، فأية سورة الأحزاب بها فيها من جلائل الأعمال وروائع الصفات تحاطب الرجال والنساء على السواء ، مما يؤكد أن المسئولية مشتركة بينهما : فيقول تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٢)

(١) سورة الطور - من الآية الحادية والعشرين .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٣٥ .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما رواه الترمذى عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت : « يا رَسُولَ اللَّهِ ، ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يُذَكَّرْنَ بشىء ، فنزلت هذه الآية الكريمة » ثم يقول الله تعالى فى الآية التالية لها مباشرة :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذْ قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (١)

واستمراراً للمنزلة الكريمة التى جعلها القرآن الكريم للمرأة نرى القرآن الكريم يعقد بين المرأة والرجل موالاة وتفاخراً فيما يجمعهما من حياة رشيدة ، ولننظر قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّةٍ عِدْنٍ وَّرِضْوَانٍ إِنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

وفى هذه الآيات ، وفى كل آية نزلت فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نجد أنها تشمل الرجال والنساء على السواء . وكذلك أحاديث الرسول ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - قولاً وفعلاً - تشمل الرجال والنساء على السواء ، من ذلك قوله ﷺ :

(١) سورة الأحزاب - الآية ٣٦ .

(٢) سورة التوبة - الآيتان : ٧١ ، ٧٢ .

[والله لتأمرنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكرِ ، ولتأخذنَّ على يدِ الظالمِ ولتأطرنَّهُ على الحقِّ أطراً ولتقصرنَّهُ على الحقِّ قصراً ، أو ليضربنَّ الله بقلوبِ بعضِكُم على بعضٍ ، ثم ليلعنكُم كما لعنهم] (١)

وإذا كانت القاعدة العامة في الشريعة الإسلامية هي مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات - اللهم إلا ما استثنى بنص صريح - فكل حق للمرأة على الرجل يقابله واجب عليها إزاءه ، وكل حق للرجل على المرأة يقابله واجب عليه إزاءها . وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٢)

ولم يقل سبحانه : ولقد كرّمنا الرجال أو الذكور .

وقال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣)

فهذه الآيات تتضمن مبدأين :

- الولاية بين المؤمنين والمؤمنات بعضهم وبعض ، وهي ولاية تشمل الأُخوة والتعاون على الخير .

- ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو واجب يشمل كل ضروب الإصلاح في كل نواحي الحياة .

(١) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن .

(٢) سورة الإسراء - من الآية ٧٠ .

(٣) سبق تحريجها .

أما عن الأعمال الطالحة فنجد أن القرآن الكريم يعقد بين الرجل والمرأة فيما يجمعهما من حياة غير رشيدة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارِجَهَتُمْ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١﴾

ويختتم الله عز وجل سورة الأحزاب بقوله :

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾

ويلاحظ أن القرآن الكريم ربط بين الشقاوتين ، وجعل شقاوة الدنيا وسيلة لشقاوة الآخرة ، وجاء ذلك في آيات عامة سبقت أحكامها كما يقول الفقهاء بصيغ العموم التي تشمل الفريقين ، فريق الرجال وفريق النساء على حد سواء ، ولا تختص بفريق دون فريق ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣﴾

وقوله تعالى في سورة طه :

(١) سورة التوبة - الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٧٣ .

(٣) سورة الإسراء - الآية ٧٢ .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَعْمَى ﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
 آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿^(١)

ومما له مغزاه في هذا المقام أن الله تعالى أشرك حواء مع آدم عليهما السلام فيما خاطبه
 به وأمره ونهاه ، فحين أمره أن يسكن الجنة ونهاه أن يأكل من الشجرة وجه إليهما
 الخطاب معًا ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
 هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢)

وحيث أنكروا سبحانه ما كان من مخالفة أمره وجه الإنكار إليهما معًا :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا
 عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾^(٣)

وهذا مما يؤكد أن المسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة على السواء ، في صالح الأعمال
 وطالحها .

(د) مساواة المرأة بالرجل في الثواب والعقاب :

وإذا كانت المرأة مستقلة في مسؤوليتها أمام الله عز وجل عن الرجل ، فهي متساوية
 معه في درجات المثوبة على فعل الخير ، ودرجات العقوبة على فعل الشر ، فإذا كان
 لكل منهما بعض التبعات التي ينهض بها كلاهما في ميدان متميز ، فهذا لا يمنع أنها

(١) سورة طه - الآيات من ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) سورة البقرة - الآية ٣٥

(٣) سورة الأعراف - من الآية ٢٢ .

شريكان في القواعد والأسس والمسئوليات العامة أمام الله تعالى ثواباً وعقاباً ، فالجزء واحد لكل منهما ، ويتضح ذلك من قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾^(١)

وقوله عز وجل :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾^(٢)

ويقول المفسرون : إن هذه الآية الكريمة نزلت حينما قالت أم سلمة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ : [إني أسمعُ الله يُذكرُ الرجالَ في الحجرةِ ولا يُذكرُ النساءَ] .

فنزل قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾

مما يدل على أن المرأة تشعر من قديم الزمن بأن لها حقاً كالرجل ، وعلى أنها لم تنزل منذ القدم تعمل على ظهور ذلك الحق والحصول عليه ، وأنها لا تحب أن تنقضى حياتها وهي في ظل رجل تخاطب بخطابه وتبشر بتبشيره وتندر بإنذاره ، وعلى أنها تنظر إلى الرجل من قديم أيضاً كشريك لها في الحياة ، ويؤيد هذا ما روى في الصحيحين من أن النساء اجتمعن مرة وقلن للرسول ﷺ :

(١) سورة النساء - الآية ١٢٤ .

(٢) سورة آل عمران - من الآية ١٩٥ .

كما وعد الله بتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة لكل من يتوافر فيه شرطان ذكرًا كان أو أنثى - والشرطان هما : الإيمان ، والعمل الصالح ، وذلك كما هو واضح في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾^(١)

وقوله عز وجل أيضاً :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢)

ويساوى القرآن الكريم بين المرأة والرجل في إقامة الحدود ، فيقول تعالى عن حد السرقة :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ
اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣)

ويقول تعالى عن حد الزنى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤)

ثالثاً : حق المرأة في حرية الاعتقاد :

لقد كفل الإسلام للمرأة حرية الاعتقاد ، فالإسلام لا يعطى الرجل سلطاناً على دين

(١) سورة النساء - الآية - ١٢٤ .

(٢) سورة غافر - الآية - ٤٠ .

(٣) سورة المائدة - الآية - ٣٨ .

(٤) سورة النور - الآية الثانية .

زوجته ، فليس له أن يُكرهها على تغيير دينها - يهودية كانت أو نصرانية - بل تبقى معه اليهودية يهودية كما كانت ، وتبقى النصرانية نصرانية كما كانت . يقول الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾^(١)

فلا تتحول واحدة من هؤلاء عن دينها إلى دينه إلا بمحض إرادتها ، فالله عز وجل يقول :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(٢)

إلى هذا الحد يحيط الإسلام المرأة بكافة ضمانات الحرية الكاملة في التصرف ، ولا هيمنة للرجل على زوجته حتى في حرية العقيدة . فالمرأة لها الحرية في أن تعتقد العقيدة التي تقتنع بها ، كما للرجل الحرية في أن يعتقد العقيدة التي يقتنع بها ، فلا يستطيع الرجل أن يفرض عقيدته على امرأته ، وللمرأة أن تعتقد ما ترى كإنسان له حرية الاعتقاد ، ويتحدث القرآن الكريم عن نساء كافرات في بيوت أنبياء ، ونساء مؤمنات في وسط كفار :

(أ) ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نبي :

فسيدنا لوط عليه السلام الرسول الذي جاء ليهدى الناس ويحملهم على منهج الله لم يستطع أن يقنع امرأته - زوجته - بمنهجه ، وظلت مخالفة لذلك المنهج ، وكذلك زوجة سيدنا نوح عليه السلام ، فيقول الله عز وجل :

(١) سورة المائدة - من الآية الخامسة

(٢) سورة البقرة - من الآية ٢٥٦ .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾^(١)

فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان ، وأمر الخيانة في العقيدة ، حتى لأزواج الأنبياء ، والمأثور في خيانة امرأة نوح وامرأة لوط أنها كانت خيانة في الدعوة وليست خيانة الفاحشة ، فامرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه ، وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه ، ويظهر هنا مبدأ التبعية الفردية ، فكل امرأة أو زوجة عليها نفسها بعد كل شىء ، فهى مسئولة عن ذاتها ولن يعفيها من التبعية ، ولم ينفع واحدة منهما أنها زوجة نبي أو صالح من المسلمين ، فمن لم يُسرِعْ به عَمَلُهُ لم يُسَعِفْهُ نَسَبُهُ .

(ب) وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة طاعية كافر :

بعد ذلك يعرض القرآن الكريم القضية المقابلة ، وهى قضية فرعون الذى ادعى الألوهية ، وبرغم ذلك لم يستطع أن يدخل في روع زوجته هذه العقيدة الضالة ، قال الله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢)

ولابن القيم التفاتة جميلة في تقديم «عندك» على «بيتاً في الجنة» إذ قال : إن امرأة فرعون قدمت الجوار على الدار .

(١) سورة التحريم - الآية العاشرة

(٢) سورة التحريم - الآية ١١ .

« ابن لى » :

ومن صور الإبداع العظيم آيات الله البيّنات أن نجد أن كلمة : «ابن» وردت في جميع آيات الله البيّنات مرتين ، وفي كلتا المرتين جاءت بالتعبير القرآنى : « ابن لى » ومن التناسق البديع أن هذا التعبير القرآنى : ابن لى جاء مرة في آية مدنية على لسان المؤمنة امرأة فرعون في قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

وجاء مرة في آية مكية على لسان الطاغية فرعون وهو يخاطب هامان :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أبلغُ الأَسْبَبِ * أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ (١)

فامرأة فرعون لم يصددها طوفان الكفر الذى تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ ، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء وهى ألصق الناس به : ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ . وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم : ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إن دعاء امرأة فرعون وموقفها مثلاً للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة ، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا

(١) سبق تحريجها .

(٢) سورة غافر - الآية : ٣٦ وصدرا الآية : ٣٧ .

العرض فحسب ، بل اعتبرته شرّاً دَنَساً وبلاءً تستعيز بالله منه ، وتطلب النجاة منه .

وإذا كانت المرأة دائماً أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع الفاسد وتصوراته ، فهذه امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية ، امرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية والمقام الملوكي ، وفي وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغى . وهى نموذج عالٍ في التجرد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الصلات ، وكل هذه المعوقات ، وكل هذه المغريات ، ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد الذى تتردد كلماته في جنبات الكون وهى تنزل من الملاء الأعلى .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران التى هى مثل للتجرد لله منذ نشأتها ومثل للطهارة والإيمان الكامل والطاعة - يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر ، والاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القاننة ، يضربهما الله للمؤمنات فى كل جيل ، وقد قال عنها ﷺ : [خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعُ : مَرْيَمُ وَأَسِيَّةُ وَخَدِيجَةُ وَفَاطِمَةُ] . لقد وصفها رسول الله ﷺ بالكمال مسوياً فى ذلك بينها وبين السيدة خديجة الزوجة الوفية الأولى للرسول ﷺ ، والسيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ، والسيدة مريم أم المسيح رضى الله عنهن أجمعين .

(ج) لماذا حرية الاعتقاد ؟

فالمرأة لها أن تعتقد ما تشاء وأن تقتنع به ؛ لأن هذا الاعتقاد سيلزمها بمنهج ، فلو لم تكن مرتبطة بالعتيدة باختيارها وأُجبرت عليها فسيكون إقبالها على منهج هذه العقيدة غير مأمون ، تُقبل على المنهج أمام الناس وأمام القانون وإذا ما خلت بنفسها تحللت من ذلك المنهج ، فلا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغيِّ ؛ لذلك فإن الإسلام لا يجعل للرجل سلطاناً على دين زوجته ، فليس له أن يكرهها على تغيير دينها - يهودية كانت أم نصرانية - لأن أساس الحساب هو النية ، فإنها الأعمال بالنيات ، وإنها لكل امرئ ما نوى ، والنية محلها القلب ، وهى القصد الحقيقى الحر للإنسان ، فالنية والقلب هما أساس الحساب على العمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؛ لذلك ليس

لأحد في هذه الدنيا أن يكره القلب على ما لا يريد ، وقد ترك الله سبحانه وتعالى هذه المنطقة في حرية تامة ، لأن الحساب يكون عليها ، وحتى يكون الحساب عادلاً يجب ألاّ تتدخل أى قوى بشرية في التأثير على القلب أو إكراهه ، بل يكون هذا القلب خاضعاً لإرادة الإنسان الحرة ومشيتته ، حتى تكون هذه شهادة عليه وعلى أعماله . وهذه المنطقة من النفس الإنسانية هى التى لها اتصال مباشر بالله سبحانه وتعالى ، فإن آمنت فإنها تؤمن عن اختيار ، ويزيدها الله هدى ، وإن كفرت فإنها تكفر عن اختيار، ويزيدها الله كفرًا ، لذلك يقول الله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١)

حتى الإيمان الذى هو القمة في هذه الحياة لا تُكره ولا تُجبر الزوجة غير المسلمة عليه ، لأن الإكراه لا نفوذ له على منطقة الاعتقاد ، وهى القلب ، فقد يكره القلب ولكن لا يستطيع إكراه القلب ، وبهذا نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

وقد فهم كثير من المسلمين هذه الآية - خطأ - أنّ حملهنّ على صلاة أو صيام أو حجاب أو أى حكم من أحكام الدين يُعدّ إكراهاً في الدين ، فلا بد من معرفة الآية الكريمة على وجهها الصحيح ، فالدين عقيدة وشريعة ، قلب وقالب ، إيمان وسلوك ، والعقيدة تبدأ أولاً ، ومكانها القلب ، وفيها نؤمن بوجود الواحد القهار الذى يخضع لإرادته كل من فى الأرض والسماء ، فلكى نؤمن بذلك لا إكراه ، فأنا هنا لى اختياري ولى حريتي ، ومادمت قد آمنت بوجود الله وأسلمت بحريتي بدون إكراه فيصبح متعيناً على تطبيق ما يطلبه الله منى ؛ لأننى أصبحت مؤمناً به ، فقوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

يعنى أن الأمر أصبح واضحاً أمامى ، وقد تبينت ما هو رشد وما هو غي ، وأصبحت من المؤمنين ، ولذلك لايقول الله تعالى :

(١) سورة البقرة- من الآية ٢٥٦ ، وقد سبق تخرجها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : وإنما يقول :

فهو سبحانه ميز بين مخاطبته لكل الناس وبين مخاطبته للذين آمنوا به ، وطلب منهم تنفيذ شريعته وأحكامه وتعاليمه ، فالإكراه في الدين مقصود به الإكراه على الإيمان . فإذا آمنت فمقد التزمت ، فأنا الذى جئت للحق مؤمناً باختيارى ، ومادمت جئت إليه مؤمناً به فقد وجب على احتضان تعاليم الدين والحرص على تطبيق أحكامه والالتزام به ، وعليه فحمل الزوجة المسلمة على صلاة أو صيام أو زكاة أو حجاب أو أى حكم من أحكام الدين لايدخل فى دائرة الإكراه ، وإنما يدخل فى دائرة الوفاء بما التزمت به بحريتها حين اختارت الإسلام ديناً لها وعقيدة .